إعجاز القراءات القرآنية في بعض مسائل العقيدة



الإعجاز في الإلهيات

من الثوابت المقررة أن العقيدة أصل الأصول في الدين الإسلامي الحنيف، والعقيدة كما هو معلوم من أشرف العلوم على الإطلاق؛ لتعلق مسائلها بمعرفة الله تعالى، وإفراده بالعبادة له دون ما سواه، وكذلك بالمسائل التي تتعلق برسل الله من حيث الصدق والأمانة والفطنة ونحو ذلك، وكذلك المسائل الغيبية التي حثنا الله تعالى على الإيمان بها.

أ.د. عبد الكريم إبراهيم صالح(*)

ولما كانت القراءات القرآنية وخاصة المتواترة جزءًا لا يتجزأ من القرآن الكريم كان لها الدور المهم في استجلاء ما يتعلق بجانب العقيدة.

ومن بين المسائل العقدية التي كان للقراءات فيها أثر ومدخل مسألة أسماء الله الحسنى، وذلك بتعددها على اللفظ الواحد، وأنه لا يتسنى لأحد أن يعبد الله تعالى على بصيرة حتى يعرفه سبحانه، فإن مَن عرف الله أحبه، ومَن أحبه اجتمع في قلبه على عبادته وحده، ولا تتسنى معرفة الله ﷻ معرفة صحيحة إلا بمعرفة أسمائه الحسنى التي مَن أحصاها دخل الجنة، وكذلك صفاته العلا، وقد أمر الله تعالى عباده أن يعبدوه ويدعوه ويتبتلوا إليه بأسمائه سبحانه فقال جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)،

وقال عز من قائل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠).

ولقد امتثل أسعد الخلق سيدنا محمد –صلوات ربي وسلامه عليه– هذا الأمر فكان يدعو ربه قائلًا: «...أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1].

وفيما يلي سأذكر من القراءات القرآنية المتواترة ما يفيد تعدد أسماء الله الحسنى

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، ورئيس لجنة مراجعة المصحف بالأزهر الشريف.

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٣٩١، ٤٥٢، والحاكم في المستدرك كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ١/ ٥٠٩ كلاهما عن ابن مسعود.

على اللفظ الواحد، وبذلك يتبين دقائق معاني بعض القراءات التي أنزلها الله على قلب رسوله ومصطفاه محمد بن عبد الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)

ففي قوله: ﴿مَٰلِكِ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف مدًّا على أنه اسم فاعل من ملك، وبها قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف العاشر.

الثانية: (مَلِكِ) بحذف الألف على وزن حذر على أنه صيغة مبالغة، وبها قرأ الباقون[٢].

دلالة كل من القراءتين:

قبل أن أبين دلالة كل من القراءتين تجدر الإشارة إلى بيان معنى كل من الاسمين «مالك، وملك».

المالك: هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء من المِلك بكسر الميم.

والملك: هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من المُلك بضم الميم.

قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ): «وذلك يختص بسياسة الناطقين؛ ولهذا يُقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الأشياء...»[٣].

(٢) النشر ١/ ٢٧١، وفتح الوصيد للسخاوي ص ١٧٥.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٤٧٢.

وحكى أبو حيان عن الأخفش أنه قال: «يقال: ملك من المُلك بضم الميم، ومالك من الملك بكسر الميم وفتحها»[٤].

ثم يذهب أبو حيان أيضًا إلى أن الملك هو القهر والتسليط على من تتأتى منه الطاعة، ويكون ذلك باستحقاق وبغير استحقاق، والملك: هو القهر على مَن تتأتى منه الطاعة، ومَن لا تتأتى منه، ويكون ذلك منه باستحقاق، فبينهما عموم وخصوص من وجه»[٥].

وبناء على ما تقدم نأتي على دلالة كل من القراءتين:

فالقراءة بالألف ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دلت على أن المولى جلت قدرته المتفرد بالمالكية في ذلك اليوم؛ فليس لأحد تصرف ولا حكم في شيء إلا للّٰهِ الواحد القهار.

قال علم الدين السخاوي: «ومعناه مالك إحداثه وإيجاده على حذف المضاف، أو مالك الحكم بين عباده يوم الدين، وأضيف اسم الفاعل إلى الظرف على السعة»[٦].

قلت: وحسن هذا الاختصاص لتفرد القدير سبحانه في ذلك اليوم بالحكم.

وأما قراءة (مَلِكِ) بدون ألف فتدل على أنه سبحانه وتعالى المتفرد يومئذ بالملك دون

(٤) البحر المحيط ١/ ٢١، ويراجع: معاني القرآن للأخفش ١/ ١٦٠.

(٥) البحر المحيط.

(٦) ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد ص ١٧٥.

ملوك الدنيا الذين صاروا يومًا من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في المعاد إلى خسار.

هـذا، ومـن أوضـح الأدلـة على وجاهة القراءتين ما يتفرع على كل منهما من أحكام ذكرها فخر الدين الرازي، نوردها بتلخيص عنه:

الأحكام المترتبة على كونه ملكًا:

الأول: أن سياسة الملوك فوق كل سياسة، وإذا كانت سياسة الملك من العباد تفوق سياسة غيره، فكيف بملك الملوك.

الثاني: أنه تعالى ملك لا كالملوك، ذلك أن الملوك ينتقص ملكهم بالعطاء، وخزائن الله ملأى، فإذا أعطى عبده ولدًا واحدًا لم يكن حكمه إلا على ذلك الولد، فإذا أعطاه عشرة كان حكمه عليهم جميعًا؛ فملكه يتسع بالعطاء.

الثالث: كمال إحسانه ﷻ إلى الخلق وتمام رحمته بهم، والقرآن الكريم ذكر ذلك في آيات كثيرة منها قوله جلت عظمته: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ (الفرقان: ٢٦) فلما أثبت لنفسه الملك وفيه كمال القهر، وأردف ذلك بصفة الرحمن، والملك الذي تكمل رحمته تفوز الرعية بعدله، ويسلم الناس من قهره.

الأحكام المترتبة على قراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

الأول: أن قراءة ﴿مَٰلِكِ﴾ أرجى من قراءة (مَـلِـكِ)؛ لأن أقصى ما يرجى من الملك العدل والإنصاف، أما المالك فالعبد يطلب منه الكسوة والطعام والرحمة والتربية، وكأنه تعالى يقول: أنا مالككم فعليَّ طعامكم وثيابكم وثوابكم وجنتكم.

الثاني: أن المالك يمنح القوي والضعيف ولا كذلك الملك(٧).

الوجه الإعجازي في تنوع القراءتين وأثر ذلك:

بعد بيان دلالة القراءتين والأحكام المترتبة على كل منهما نرى بجلاء عمق الوجوه الإعجازية في تنوعهما، ففي اختلافهما جمع بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والعدل والرحمة، فالمالك رحيم، والملك عدل، والمالك يرجى، والملك يخشى، والمالك مرغوب، والملك مرهوب، فضلًا عن أن «الملك» صفة لذاته. و«المالك» صفة لفعله، وكلاهما من أسمائه الحسنى، فهو سبحانه وتعالى يوصف بالملك، ويوصف بالمالك.

قال اللقاني في الجوهرة:

وعندنا أسماؤه العظيمه
كذا صفات ذاته قديمه
واختير أن اسماه توقيفيه
كذا الصفات فاحفظ السمعيه(٨)

(٧) التفسير الكبير ١/ ٢٩٢.
(٨) المختار في شرح البيجوري على الجوهرة ص ١٠٤ وما بعدها.

فالقراءتان نص توقيفي في جواز إطلاق اسم المالك والملك على الله سبحانه وتعالى.

والحق أن ذلك ليس حكمًا استقلت به الآية الكريمة بقراءتيها، بل هو توكيد لنصوص أخرى ظاهرة في القرآن الكريم منها قوله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ (آل عمران: ٢٦). وقوله جل شأنه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦). وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ (الحشر: ٢٣). وقوله جلت قدرته وتقدست أسماؤه: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٢).

وإنما استقلت هاتان القراءتان بجواز إضافة هذين الاسمين الجليلين إلى يوم القيامة، فتقول هو سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ و(مَلِكِ يوم الدين).

وإذا كان الأمر كما سمعت إلا أنه حُكِيَ عن البعض اختيار قراءة (مَلِكِ يوم الدين) بحذف الألف؛ وذلك لاستغنائه عن الإضافة، ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ (غافر: ١٦)، ولأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا؛ ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثوابًا لأنه أكثر حروفًا.

والذي أراه أن التأمل لهذا الخلاف والاختيار الوارد عن بعض المفسرين، ليس منه كبير فائدة؛ لأن كلًّا من المالكية أو الملكية صفتان ثابتتان لله ﷻ أضيفت كل واحدة منهما في قراءتها إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وبهذه الإضافة فقد استويا في إفادة المقصود؛ وذلك أنه المتصرف في شئون ذلك اليوم دون شبهة مشارك، بمعنى أن «المالك» إذا أضيف إلى «اليوم» أفاد اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض، فلا يكون لأحد معه أمر، ولا معنى «للملك» سوى هذا؛ لذا لما لم تفد إضافته إلى «الناس» هذا المعنى لم يكن خلاف في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٢) فضلًا عن أن القراءتين وردتا عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر كما ذكر الإمام الترمذي[(٩)] -رحمه الله-.

وبذا ينبغي علينا أن نغلق باب الترجيح بين القراءات؛ إذ الجميع كلام الله، وكل معنى دلت عليه قراءة هو مراد الله سبحانه وتعالى، والمعنى المركب من اللفظ العربي من حيث هو حق في نفسه، ولكنه بالنسبة لله تعالى على ما يليق بجلاله سبحانه، فلا مجال للترجيح بين القراءتين هاهنا.

لذا نجد العلامة الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) يحسم القضية قائلًا: «وعندي لا ثمرة للخلاف، والقراءتان فرسا رهان، ولا فرق بين «المالك» و«الملك» صفتين لله تعالى، كما قاله السمين، ولا التفات إلى

(٩) سنن الترمذي، كتاب: القراءات باب: في فاتحة الكتاب حديث ٢٩٢٧، ٢٩٢٨، ٥/ ١٨٥.

من قال إنها لـ «حاذر» و«حذر»، ومتى أردت ترجيح أحد الوصفين تعارضت لدي الأدلة، وسدت علي الباب الآثار، ونقلت إلي بصر البصيرة خاسئًا وهو حسير.

إلا أني أقرأ كالكسائي ﴿مَٰلِكِ﴾ لأحظى بزيادة عشر حسنات، ولأن فيه إشارة واضحة إلى الفضل الكبير والرحمة الواسعة والطمع بالمالك من حيث إنه مالك فوق الطمع بالملك من حيث إنه ملك، فأقصى ما يُرجى من الملك أن ينجو الإنسان منه رأسًا برأس، وإضافته إلى يوم الدين بهذا المعنى ليكسر حرارته؛ فإن سماع يوم الدين يقلقل أفئدة السامعين، ويشبه ذلك من وجه قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ (التوبة: ٤٣)، والمدار على الرحمة لا سيما والأمر جدير، والترغيب فيه أرغب على أنه لا يخلو الحال عن ترهيب، وكأنّي بك تعارض هذه النكت وما علي؛ فهذا الذي دعاني إليه حسن الظن»[١٠].

أثر تنوع القراءات في أسماء الله الحسنى:

وكما أن تنوع القراءات له أثر ومدخل في تعدد الأسماء الحسنى على اللفظ الواحد ووجه الإعجاز في ذلك، فقد تنوعت القراءات لتبين معنى اسم من أسمائه سبحانه وتعالى وتوضح مراده وهو اسم الله «الحافظ» ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف: ٦٤).

ففي قوله: ﴿حَٰفِظٗا﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿حَٰفِظٗا﴾ بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء على وزن فاعل، وبها قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر.

الثانية: (حِفْظًا) بكسر الحاء وحذف الألف التي بعدها وإسكان الفاء، وبها قرأ الباقون[١١].

توجيه القراءتين:

فمن قرأ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰفِظٗا﴾ فللمبالغة على تقدير فالله خير الحافظين، فاكتفى بالواحد عن الجميع، وفي نصبه وجهان:

أظهرها: أنه تمييز نحو: «وهو خيرهم رجلًا، ولله دره فارسًا».

قال المنتجب الهمذاني (ت٦٤٣هـ): «وهو الوجه -أي التمييز- لأن «خيرًا» هنا بمعنى أَخْيَر، وإذا كان كذلك فلا بد من مميز»[١٢].

وعليه يكون المعنى: فالله أخير حافظًا، أي: إن الله تعالى متصف بأن حفظه يزيد على حفظ غيره، ومما يؤكد ذلك ويزيده وضوحًا قراءة الأعمش والمطوعي: (فالله خيرُ حافظٍ) على الإضافة، وكذلك قراءة ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما (فالله خير الحافظين)[١٣].

---

(١٠) روح المعاني ١/٨٣، ٨٤.

(١١) غاية الاختصار ٢/ ٥٢٩، والكنز في القراءات العشر لابن الوجيه الواسطي تحقيق هناء الحمصي ص ١٧٧.

(١٢) الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٧٩.

(١٣) الكشاف ٢/ ٤٨٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٠، والتفسير الكبير ١٧، ٩٧.

الثانية: أنه حال، أي: فالله خير في حال حفظه، ولم يزل سبحانه ما أعظم شأنه، وهذا الوجه حكاه جار الله الزمخشري رحمه الله، وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لما فيه من تقييد الخيرية بهذه الحالة.

ورد بأنها حال لازمة؛ لأنها مؤكدة لا مبينة، وليس هذا بأول حال وردت لازمة.

أما من قرأ (حفظا) على وزن فعلا: فعلى أنه مصدر حفظ يحفظ حفظًا، ونصبه على التمييز، وذلك أن إخوة يوسف -عليه السلام- لما نسبوا الحفظ إلى أنفسهم في قوله جل شأنه: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وفي قوله ﷻ: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ (يوسف: ٦٥) قال لهم أبوهم: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾؛ أي: حِفْظ الله خير من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم بقولكم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١٤].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

بالنظر إلى القراءتين ندرك أن بينهما علاقة تدل على ضرب من ضروب الإعجاز القرآني فالقراءة الثانية (حفظا) ترجع في معناها إلى معنى القراءة الأولى: ﴿حَٰفِظٗا﴾؛ لأن الحافظ لا يوصف بأنه حافظ إلا وله حفظ، ولا شك أن الله ﷻ أحفظ الحافظين، وما دام كذلك فهو سبحانه وتعالى خيرٌ حفظًا من حفظ أبناء نبي الله يعقوب لأخيهم. قال ابن خالويه: (... فالله خيركم حفظًا وحافظًا).

كما تفيدنا قراءة ﴿حَٰفِظٗا﴾ حكما ضروريًّا وهو أن من أسماء الله تعالى الحسنى: الحافظ مثل هذا الاسم العظيم لا يكون إلا عن توقيف.

وقد ورد التصريح في القرآن الكريم باسم الله الحفيظ في مواضع كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ (سبأ: ٢١)، وقوله تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ (هود: ٥٧).

كما ورد اسم الله «الحافظ» بصيغة الجمع مرة واحدة في سورة الأنبياء في قول الله ﷻ: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٢).

وحيث تواترت القراءة فقد وجب المصير إليها، ولا خلاف بين الأمة قاطبة أن الحافظ اسم من أسماء الله الحسنى، تقدست أسماؤه وجلت صفاته، وأن هذه القراءة إن لم تستقل بجواز إطلاق هذه التسمية فقد أكدت ذلك، ولا نزاع فيما دلت عليه القراءة الأخرى من أن الله ﷻ خير حفظًا، فهو مما أجمع عليه الموحدون.

(١٤) الموضح لابن أبي مريم ٣/ ٦٨٤.